-من وجوه الإعجاز لدى المتقدمين:

الإعجاز بالنظم والتركيب النحوي

أولاً- النظم لغة واصطلاحاً:

-معنى النظم لغة: فهو بمعنى التأليف، ونظمه ألفه وجمعه في سلك فانتظم، أي ضم بعضه إلى بعض، والمنظوم هو ما تناسقت أجزاؤه على نسق واحد.

-النظم اصطلاحاً: قال الجرجاني: اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وقوانينه وأصوله ومناهجه، فلا تزيغ عنه ولا تخل بشيء منه. فالنظم في القرآن هو خصائص مهمة في اسلوبه وراء جمال اللفظ وجمال المعنى تطَّرد في جميع آياته.

ثانياً-تاريخ فكرة النظم وتطورها: تتمثل فكرة بذرة النظم فيما كتبه النحاة مثل سيبويه والجاحظ وغيرهم من علماء الإعجاز المتقدم ذكرهم.

قال سيبويه: (معنى النظم هو إتلاف الكلام وما يؤدي إليه من حسن وقبح وصحة وفساد..)، **وقال الجاحظ:** (النظم والأسلوب في القرآن هو النظم الذي لم تعهده العرب في نثرهم وشعرهم، وقد سحرهم في مقاطعه وفواصله ومطالعه..)، **وقال أبو سليمان الخطابي:** (إنما صار القرآن معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف متضمناً أصح المعاني..إذ وضع كل نوع من الألفاظ موضعه الأخص.. ولو رفع من موضعه لذهب رونق الكلام ولتغير المعنى واختفت البلاغة..)، **وقد قرر الباقلاني بأن تحقق الإعجاز يتم بثلاثة أوجه:**

١-ما فيه من عجيب النظم،٢- ما فيه من بديع الوصف،٣-العجز عن أن يؤتى بمثله.

فليس الإعجاز في الحروف وإنما في نظمها وضم بعضها إلى بعض.

-أمَّا القاضي عبد الجبار الأسد آبادي: فقد قال الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام وإنما في ضم بعضه إلى بعض، وإن لكل كلمة صفة قد تكون في: ١- المواضعة، ٢-الإعراب، ٣-وقد تكون في الموقع. فالتزيد في المزية لا يكون إلا في ضم الألفاظ بعضها إلى بعض كقوله ﷻ: ﴿وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين في سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود وماء مسكوب وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة﴾. ودحض فكرة التكرار في سورة الرحمن قال ﷻ:

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، فقال إن هذا ليس بتكرار، لأنه يذكر ويعدد نعم بعد نعم، كأن تقول: اتقتل زيدا وأنت تعرف فضله، اتقتل عمراً وأنت تعرف صلاحه، وتقتل فلاناً وأنت تعرف شجاعته...الخ.

–**وقرر الجرجاني** أن نظرية النظم ليست شيئاً قبل تأليف الجملة إلاً بالضم والتأليف وبناء الكلمة ومؤانستها لأختها ولا فضل لها من دون أختها، وقد ربط النظم بعلم النحو ربطاً محكماً وسمَّاه البلاغة النحوية. وممَّا يجدر ذكره أنَّ مصطلح النظم مصطلح أشعري ويقابله عند المعتزلة مصطلح الفصاحة الذي يتضمن حسن اللفظ وحسن المعنى.

ثالثا– بعض التطبيقات على علم الإعجاز بالنظم والتركيب النحوي:

أ– أمثلة للجرجاني عن النظم القرآني ولاتساق بين المعاني والألفاظ: قال إن الكلمة لا تكتسب صفتها الذاتية وشحنتها النفسية إلا إذا كانت في عشيرة من الكلمات وسلك من النظم المخصوص و لا يمكن أن تدل على نفسها إلا بأخواتها فتتشابك الأفكار وتتعانق فينشأ تركيب من الصور والتأملات التي تكون الأسلوب المعجز الذي تفوق فيه القرآن وأعجز، قال ﷻ: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ فأي كلمة من هذه الآية لا يمكن أن تؤدي وظيفتها إلا إذا كانت في مكانها في تعانق وتناسق رائع مع أخواتها فيتحقق البناء والنظم المعجز. وفي قوله: ﷻ: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ فللتنكير في هذه الآية روعة وحسن ولطف لا تجده مع التعريف، فالحرص الشديد والحالة النفسية لليهود جعلتهم يعيشون أي حياة مهما كانت حرصاً على مستقبلهم وهو المعنى الثاني المكتسب من تنكير كلمة(حياة) الذي نبه عليه الجرجاني في هذه الآية. وقوله: ﷻ: ﴿ولكم في القصاص حياة﴾، فمن علم انه إذا قتل سيقتل سيمتنع عن قتل الناس بسبب القصاص فيكون في هذا حياة للآخرين.

ب – ومن التطبيقات على الإعجاز بالنظم، **الإعجاز بالبنية والصيغ:** الاسم يدل على الثبوت والاستقرار، والفعل يدل على التغير والحدوث والتجدد، فالحديث عن رجل يكتب يدل على

الحدوث والتجدد أي أنه آخذ بالكتابة ومجدد لها. أما عن قولك فلان كاتب فهذا يدل على أن وصف الكتابة قد تم وثبت له.. ولذلك قيل إن الجملة الإسمية أقوى من الجملة الفعلية.

يقول الرازي: لما كان اخراج الحي من الميت يحتاج إلى مزيد عناية فأتى به تعالى بصيغة الفعل المضارع الدال على التجدد والحدوث في كل حين وأوان فقال ﷻ: ﴿يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي﴾، أما الاسم فلا يحتاج إلى مزيد من الاعتناء ساعة فساعة لأنه تم وانتهى، قال ﷻ: ﴿مخرج الميت من الحي﴾، أي أنه مات وانتهى. وهذا يحدده سياق الآيات ..

-وحينما يستعمل القرآن الكريم **المصدر** يستعمله استعمالا عجيبا ومعجزا فيأتي بالمصدر مرفوعا في سبيل الواجبات كقوله: ﷻ: ﴿ الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ وقوله: ﷻ: ﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾، وفي المندوبات يأتي بالمصدر منصوباً قال: ﷻ: ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ ﴾، ومثله قوله ﷻ: ﴿فقالوا سلاماً قال سلامٌ﴾ إذ قال (سلاماً) للمندوب، وقال (سلامٌ) للواجب، قال أبو حيان الجملة الإسمية أكثر توكيدا من الجملة الفعلية.

وقد يجمع القرآن بين صيغتين من مادة واحدة احتياطاً للمعنى كقوله ﷻ: ﴿الرحمن الرحيم﴾ إذ جمع بين الصيغتين ليفيد ثبوت الرحمة وتجددها لعباده المؤمنين، فقوله (رحمن) على وزن فعلان وهي غير ثابتة تقول عطشان غضبان وهي متجددة وغير ثابتة، بخلاف قوله(رحيم) فإنها صفة ثابتة له وهي على وزن فعيل: وهي تفيد الدوام والثبات تقول: جميل وطويل وكريم وضعيف، ففي (الرحمن الرحيم) جمع تعالى بين الصيغتين ليفيد ثبوت الرحمة وتجددها لعباده المؤمنين.

-ومن ذلك استخدامه **لصيغ الجموع:** فهو قد يستعمل صيغة في موضع ويستخدم صيغة جمع اخرا لنفس الكلمة في موضع آخر، قوله ﷻ: ﴿وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ وقوله ﷻ: ﴿سبع سنابل﴾ مع أن العدد واحد وهو(سبع) والسر أن كلمة (سنابل) جمع كثرة و(سنبلات) جمع قلة، فاستعمل جمع الكثرة لزيادة الفضل والأجر والثواب للمنفق في سبيل الله،

واستعمل جمع القلة لأنه لا يفيد الكثرة وهي سني القحط والجفاف. فاستعمل كل لفظ لما يناسبه بحسب السياق في موضعه.

-**وفي باب التقديم والتأخير**: كان القرآن معجزا ودقيقا جداً، قال ﷻ: ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين﴾، إذ قدم المفعول(إياك) على الفاعل(نعبد)، وقدم (إياك) على نستعين، والسبب في كل هذا هو :حصر العبادة والاستعانة بالله وحده، فلا يجوز عبادة أحد إلا الله، ولا يجوز الاستعانة بأحد إلا بالله. وقدمت العبادة في الفاتحة على الاستعانة لأنها سبب في الاستعانة. ومثلها تقديم المغفرة على الرحمة لأن المغفرة سلامة والرحمة غنيمة، وتقديم الرحمة على العذاب، وتقديم السمع على البصر، والسمع على العلم. فاختيار اللفظ ووضعه في سياقه جعل القرآن كأنه لوحة فنية واحدة وجسد واحد يستدعي بعضه بعضاً، فخاطب الفقراء الذين يقتلون أولادهم خشية أن يأكلوا معهم فقال لهم ﷻ: ﴿نحن نرزقكم وإياهم﴾ وخاطب الأغنياء الذين يقتلون أولادهم خشية من أن يشاركوهم في ثروتهم فقال لهم ﷻ: ﴿نحن نرزقهم وإياكم﴾، فوعد الطائفتين بالرزق.

- **وفي الحذف والذكر**: عمد القرآن إلى حذف كلمة أو حرف لغرض فني أو بلاغي لأن لكل حرف أو كلمة في كتاب الله وضعاً مقصوداً ومحدداً بحسب السياق. قال ﷻ: ﴿إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أو في السموات أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾. إذ حذف النون من (تك) وأثبتها في (تكن)، حذفها حينما كان السياق عن تناهي حبة الخردل في الصغر والقماءة فناسبها الحذف، وأثبتها في قوله (تكن) حينما كان السياق يفيد تمام اختفائها واكتماله، فناسب كثرة الموجودات (فتكن) وناسب حقارتها ودناءتها الحذف فقال (تك). **قال الزركشي**: تحذف النون للدلالة على تناهي مبدأ الشيء وحقارته ويخلق منه ما لا يعلمه إلا الله، قال ﷻ: ﴿الم يك نطفة﴾ ثم يترقى في سلم وأطوار التكوين. وقال في جوابه لزكريا قال ﷻ: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾، وجاء بالنون حينما كان زكريا يتكلم عن تمام النعمة عليه من ربه قال ﷻ: ﴿قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا﴾، ومثلها قوله : (اسطاعوا) و (استطاعوا)، قال ﷻ: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾، فقال اسطاعوا لأن الصعود أهون من النقب أو الثقب فحذف

التاء، وحينما كان الثقب والنقب أصعب أضاف التاء لمزيد تعب وجهد وحاجة للآلات والتعاون والتعاضد، وقد قيل الزيادة في المباني تفيد الزيادة في المعاني. وقس على ذلك ما ورد في القرآن من هذا الباب وغيره.

-**استعمال الألفاظ في مواضعها الملائمة:** لاحظ كيفية استعمال كلمة (تقربوها) وكلمة (تعتدوها) في قوله ﷻ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا﴾، وقوله ﷻ: ﴿ تلك حدود الله فلا تعتدوها﴾، ففي الأولى نهى عن الاقتراب منها، لأنها كانت بعد نواه كثيرة تناسب النهي فقال (فَلاَ تَقْرَبُوهَا) كالزنا والفواحش وغيرها، وفي الثانية نهى عن تعديها لأنها جاءت بعد أوامر كثيرة فناسب النهي عن تعديها وتجاوزها والوقوف عندها فقال (فلا تعتدوها) وغالبها تتعلق بحقوق المرأة والزوج والأمر بالمعروف وغيرها.